التسامح

لقد جاء الإسلام برسالة سامية ، تدعو إلى الأخلاق والقِيَم وتؤسس لمجتمع نقي مترابط ، يتسم بنفوس زكية ، وقلوب تقية ، وفطرة نقيّة ، وتؤصل هذه الرسالة قيم الحب والرحمة والألفة وفقه التعايش وقبول الآخر ، ومن هذه الأخلاق الجامعة : خلق التسامح.

والتسامح قيمة أخلاقية يحبها الله ورسوله ، وعلامة يتميز بها المؤمن عن غيره ، بها تتحقق سعادة الإنسان وأمنه واستقراره .

وللتسامح في اللغة عدة معان منها : العفو عند المقدرة ، وكظم الغيظ ، واللين ، والرحمة ، والتعاطف ، وغير ذلك مما يحمله التسامح من معانٍ أخلاقية رائعة.

ولقد دعت إليه جميع الرسالات الإلهية ؛ لما له من دور فاعل في تنمية روح الألفة والمودة ، ونبذ الصراعات ، وتنقية الصدور من الأحقاد والبغض والكراهية ، فبالتسامح تتحقق الألفة لا الفرقة ، وبه تتحقق ثقافة الاختلاف لا ثقافة الضجيج ، وبالتسامح تنمو ثقافة التدبير لا التبرير ، وبه تزكو قيم الحب والاحترام لا قيم الكراهية والاحتدام ، وبالتسامح تنتشر قيم الرحمة لا القسوة ، وتسمو النفس إلى مرتبة أخلاقية رائعة تحقق تلك المعاني مع غيرها ، فما أطيبه من خلق كريم!! إذا التزمت به النفوس انعكس ذلك على المجتمع ، فأصبحنا أمام مجتمع نقي صاف مترابط ،

تسوده قيم الوحدة بكل معانيها.

ويعد التسامح من المبادئ الرئيسة في الإسلام ؛ إذ إنه يعبّر عن

مقاصد النبوة ؛ حيث يقول الله تعالى: {وَمَآ أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ} [الأنبياء:١٠٧]، فرسالة النبي (صلى الله عليه وسلم) كلها رحمة ولين.

وقد رسَّخ الإسلام لهذه القيمة في قلوب أتباعه ، فبيّن أنَّ الأنبياءَ أخوة ، لا تفاضلَ بينهم مِنْ حيث الرسالة ، ومن حيث الإيمان بهم ، قال تعالى:{قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ}[الْبَقَرَةِ: ١٣٦] .

ومن صور التسامح في الإسلام: (التعايش مع أصحاب الأديان الأخرى وإكرامهم والبر بهم) ، قال تعالى: {لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ}[الممتحنة:٨]، وقال أيضًا :{وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا}[البقرة :٨٣]، فهذه الآيات وغيرها تؤكد أن الإسلام دين التسامح والتلطف ، والمعاملة بالمعروف مع الآخرين.

ومما لا شك فيه أن للسماحة والتيسير أهمية كبرى وأثرًا واضحًا في سرعة انتشار الإسلام وارتفاع رايته ودوام بقائه بين الأمم والشعوب التي اعتنقته ، فالتاريخ يشهد بأن سرَّ انتشار الإسلام واعتناق الناس له، ودخولهم في دين الله أفواجًا هو هذا المنهج الرباني المبني على التسامح والرحمة ، وحسن المعاملة وعدم التعصب والتشدد ، أما صور التعصب الممقوت التي يساء فيها إلى الإسلام ، والتي تتجاوز أصل السماحة إلى الشدة والمشقة والعنت، فإنها لا تدفع الناس إلى الدخول

فيه، بل تدفعهم إلى النفور منه، أو التفريط في بعض تعاليمه.

وإذا انتقلنا إلى التطبيق العملي للتسامح في حياة رسول الله (صلى الله عليه وسلم) مع أصحاب الأديان الأخرى سنجد أروع الأمثلة التي ضربها النبي (صلى الله عليه وسلم) في تسامحه مع غيره ومن ذلك :

تسامحه (صلى الله عليه وسلم) مع غير المسلمين ، وذلك حين استقبل وفد نصارى الحبشة أكرمهم بنفسه ، وقال: (إنَّهمْ كَانوا لأصْحَابِنَا مُكْرِمِينَ، فإني أحبُّ أنْ أكافِئَهُمْ) (دلائل النبوة للبيهقي).

ومن تسامحه (صلى الله عليه وسلم) قبوله الهديةً من المقوقس ملك مصر، وكانت الهدية السيدة مارية (رضي الله عنها) التي أنجبت ابنه إبراهيمَ (عليه السلام).

تسامحه (صلى الله عليه وسلم) مع الأعرابي الذي عزم على قتله (صلى الله عليه وسلم) ، فعَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا) قَالَ : قَاتَلَ رَسُولُ اللَّهِ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) مُحَارِبَ خَصَفَةَ بِنَخْلٍ، فَرَأَوْا مِنَ الْمُسْلِمِينَ غُرَّةً، فَجَاءَ رَجُلٌ مِنْهُمْ يُقَالُ لَهُ غَوْرَثُ بْنُ الْحَارِثِ حَتَّى قَامَ عَلَى رَأْسِ رَسُولِ اللَّهِ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) بِالسَّيْفِ، فَقَالَ: مَنْ يَمْنَعُكَ مِنِّي؟ قَالَ: (اللَّهُ) قَالَ: فَسَقَطَ السَّيْفُ مِنْ يَدِهِ، فَأَخَذَهُ رَسُولُ اللَّهِ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) وَقَالَ: (مَنْ يَمْنَعُكَ؟) قَالَ: كُنْ خَيْرَ آخِذٍ، قَالَ: (تَشْهَدُ أَنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنِّي رَسُولُ اللَّهِ؟) قَالَ: أُعَاهِدُكَ عَلَى أَنْ لَا أُقَاتِلَكَ، وَلَا أَكُونُ مَعَ قَوْمٍ يُقَاتِلُونَكَ، قَالَ: فَخَلَّى رَسُولُ اللَّهِ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) سَبِيلَهُ فَجَاءَ إِلَى قَوْمِهِ، فَقَالَ:جِئْتُكُمْ مِنْ عِنْدِ خَيْرِ النَّاسِ (ابن حبان).

وحين أغلظ الأعرابي على النبي (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ)، قابل النبي (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) هذه الغلظة بالتبسم والتسامح ، معلّمًا لنا كيف نتعامل مع الآخر؟ وكيف نقوده إلى طريق المصافاة والمودة؟! وكيف ندفع مساءة من أساء إلينا بالإحسان إليه؟! كما قال ربنا سبحانه: {ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ} [فُصِّلَتْ: ٣٤]، فعن عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ (رضي الله عنه) قَالَ: (كُنْتُ أَمْشِي مَعَ رَسُولِ اللهِ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) وَعَلَيْهِ بُرْدٌ نَجْرَانِيٌّ غَلِيظُ الْحَاشِيَةِ ، فَأَدْرَكَهُ أَعْرَابِيٌّ فَجَبَذَهُ جَبْذَةً، حَتَّى رَأَيْتُ صَفْحَ، أَوْ صَفْحَةَ ـ عُنُقِ رَسُولِ اللهِ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ)، قَدْ أَثَّرَتْ بِهَا حَاشِيَةُ الْبُرْدِ مِنْ شِدَّةِ جَبْذَتِهِ ، فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ أَعْطِنِي مِنْ مَالِ اللهِ الَّذِي عِنْدَكَ ، فَالْتَفَتَ إِلَيْهِ ، فَضَحِكَ ثُمَّ أَمَرَ لَهُ بِعَطَاءٍ) (رواه أحمد).

ولننظر إلى هذا التسامح العميق من رسول الله (صلى الله عليه وسلم) مع سيد أهل اليمامة (ثمامة بن أثال) ، فعَنْ سَعِيدِ بْنِ أَبِي سَعِيدٍ المقبري، أَنَّهُ سَمِعَ أَبَا هُرَيْرَةَ (رضي الله عنه) يَقُولُ: بَعَثَ رَسُولُ

اللَّهِ (صلى الله عليه وسلم) خَيْلاً قِبَلَ نَجْدٍ فَجَاءَتْ بِرَجُلٍ مِنْ بَنِى حَنِيفَةَ يُقَالُ لَهُ: ثُمَامَةُ بْنُ أُثَالٍ سَيِّدُ أَهْلِ الْيَمَامَةِ. فَرَبَطُوهُ بِسَارِيَةٍ مِنْ سَوَارِى الْمَسْجِدِ فَخَرَجَ إِلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ(صلى الله عليه وسلم) فَقَالَ: (مَاذَا عِنْدَكَ يَا ثُمَامَةُ ؟) فَقَالَ: عِنْدِى يَا مُحَمَّدُ خَيْرٌ، إِنْ تَقْتُلْ تَقْتُلْ ذَا دَمٍ، وَإِنْ تُنْعِمْ تُنْعِمْ عَلَى شَاكِرٍ، وَإِنْ كُنْتَ تُرِيدُ الْمَالَ؛ فَسَلْ تُعْطَ مِنْهُ مَا شِئْتَ، فَتَرَكَهُ رَسُولُ اللَّهِ (صلى الله عليه وسلم) حَتَّى كَانَ بَعْدَ الْغَدِ فَقَالَ: (مَا عِنْدَكَ يَا ثُمَامَةُ؟) قَالَ: مَا قُلْتُ لَكَ: إِنْ تُنْعِمْ تُنْعِمْ عَلَى شَاكِرٍ، وَإِنْ تَقْتُلْ تَقْتُلْ ذَا دَمٍ، وَإِنْ كُنْتَ تُرِيدُ الْمَالَ فَسَلْ تُعْطَ مِنْهُ مَا شِئْتَ، فَتَرَكَهُ رَسُولُ اللَّهِ (صلى الله عليه وسلم) حَتَّى كَانَ مِنَ الْغَدِ فَقَالَ (مَاذَا عِنْدَكَ يَا ثُمَامَةُ ؟) فَقَالَ: عِنْدِى مَا قُلْتُ لَكَ: إِنْ تُنْعِمْ تُنْعِمْ عَلَى شَاكِرٍ، وَإِنْ تَقْتُلْ تَقْتُلْ ذَا دَمٍ ، وَإِنْ كُنْتَ تُرِيدُ الْمَالَ فَسَلْ تُعْطَ مِنْهُ مَا شِئْتَ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ (صلى الله عليه وسلم): (أَطْلِقُوا ثُمَامَةَ)، فَانْطَلَقَ إِلَى نَخْلٍ قَرِيبٍ مِنَ الْمَسْجِدِ، فَاغْتَسَلَ ثُمَّ دَخَلَ الْمَسْجِدَ فَقَالَ: أَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، يَا مُحَمَّدُ وَاللَّهِ مَا كَانَ عَلَى الأَرْضِ وَجْهٌ أَبْغَضَ إِلَىَّ مِنْ وَجْهِكَ فَقَدْ أَصْبَحَ وَجْهُكَ أَحَبَّ الْوُجُوهِ كُلِّهَا إِلَىَّ، وَاللَّهِ مَا كَانَ مِنْ دِينٍ أَبْغَضَ إِلَىَّ مِنْ دِينِكَ فَأَصْبَحَ دِينُكَ أَحَبَّ الدِّينِ كُلِّهِ إِلَىَّ، وَاللَّهِ مَا كَانَ مِنْ بَلَدٍ أَبْغَضَ إِلَىَّ مِنْ بَلَدِكَ فَأَصْبَحَ بَلَدُكَ أَحَبَّ الْبِلاَدِ كُلِّهَا إِلَىَّ، وَإِنَّ خَيْلَكَ أَخَذَتْنِى وَأَنَا أُرِيدُ الْعُمْرَةَ فَمَاذَا تَرَى؟ فَبَشَّرَهُ رَسُولُ اللَّهِ (صلى الله عليه وسلم) وَأَمَرَهُ أَنْ يَعْتَمِرَ فَلَمَّا قَدِمَ مَكَّةَ قَالَ لَهُ قَائِلٌ: أَصَبَوْتَ؟ فَقَالَ: لاَ، وَلَكِنِّى أَسْلَمْتُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ (صلى الله عليه وسلم)، وَلاَ وَاللَّهِ لاَ يَأْتِيكُمْ مِنَ الْيَمَامَةِ حَبَّةُ حِنْطَةٍ حَتَّى يَأْذَنَ فِيهَا رَسُولُ اللَّهِ (صلى الله عليه وسلم) (رواه مسلم).

لم تكن هذه الأخلاقُ العظيمةُ في الإسلام شِعارًا فَضْفاضًا ، ولا قِيَمًا خالية مِن مَضامِينها الإنسانيَّةِ ، بل كانت حركةً نابضةً بالحياة جَسَّدَها الرَّسولُ الكريمُ (صلَّى الله عليه وسلَّمَ) في قُدوَتِهِ لنا بصورةٍ مُضيئةٍ، فقد آذته قريشٌ في معركة أُحُد، وجمعت جهدَها لقتْلِهِ ووَأْدِ دعوتِهِ ، وخرج من المعركة جريحًا وقد كُسِرت رَباعيَّتُهُ وشُجَّ وجهُهُ الكريمُ، فقيل له: يا رسولَ الله ادْعُ على المُشركين، فقال: (إنِّي لم أُبْعَثْ لَعّانًا وإنَّما بُعِثْتُ رحمةً) (رواه مسلم).

وهذا ما بَرزَ واضحًا حين ذهب رسول الله (صلى الله عليه وسلم) إلى الطائف يدعو الناس إلى الإسلام، إلا أنهم رموه بالحجارة وأدموا قدمه الشريفة، فرجع (صلى الله عليه وسلم) وهو مهموم ، فأرسل الله تعالى له جبريل (عليه السَّلامُ) ومعه ملك الجبال ، فقال له جبريلُ : (إنَّ اللهَ قد سمِعَ قولَ قومِكَ لكَ وما ردُّوا عليكَ ، وقد بعثَ اللهُ إليكَ مَلكَ الجِبالِ لتأمُرَهُ بما شِئْتَ فيهم، فناداني ملك الجِبال فسَلَّمَ عليَّ، ثمَّ قال: يا مُحمَّدُ! إنْ شِئتَ أنْ أُطْبِقَ عليهمُ الأَخشَبَيْنِ، فقال النَّبيُّ (صلَّى الله عليه وسلَّم) : (بل أرجو أن يُخرِجَ اللهُ مِن أصلابِهِم مَن يعبُدُ اللهَ وحدَهُ لا يُشرِكُ به شيئًا) (متفق عليه).هكذا نظر رسول الله إلى قومه بنور الإسلام وسماحته.

وعلى نهجه (صلى الله عليه وسلم) سار الصحابة (رضي الله عنهم)، فهذا أبو بَكرٍ الصِّدِّيقِ (رَضِيَ اللهُ عَنهُ) كَانَ يُنفِقُ عَلَى مِسطَحِ بنِ أُثَاثَةَ لِقَرَابَتِهِ مِنهُ وَفَقْرِهِ – فَلَمَّا وَقَعَ المُنَافِقُونَ في عِرضِ ابنَتِهِ عَائِشَةَ الصِّدِّيقَةِ (رَضِيَ اللهُ عَنهَا) وَكَانَ مِسطَحٌ فِيمَن وَقَعُوا– قَالَ الصِّدِّيقُ: وَاللَّهِ لاَ أُنْفِقُ عَلَى مِسْطَحٍ شَيْئًا أَبَدًا بَعْدَ الَّذِي قَالَ لِعَائِشَةَ مَا قَالَ ، فَأَنزَلَ اللهُ تَعَالَى: {وَلَا يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَى وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ}[النور:٢٢] ، فَقَالَ أَبُو بَكرٍ الصِّدِّيقُ: (بَلَى وَاللهِ ، إِنِّي لأُحِبُّ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لِي، فَرَجَعَ إِلَى مِسْطَحٍ النَّفَقَةَ الَّتِي كَانَ يُنْفِقُ عَلَيْهِ وَقَالَ وَاللَّهِ لاَ أَنْزِعُهَا مِنْهُ أَبَدًا) (صحيح البخاري).

إِنَّ أَعظَمَ السَّمَاحَةِ وَأَعلَى دَرَجَاتِهَا، أَن يَتَسَامَحَ المَرءُ مَعَ مَن أَسَاءَ إِلَيهِ، أَو جَحَدَ فَضلَهُ وَنَسِيَ مَعرُوفَهُ.

بهذه النظرة الإنسانية وما فيها من محبة وتسامح ساد الإسلام وارتفعت رايته ؛ لأنه جاء بما يتوافق مع فطرة الإنسان وبما جبلت عليه العقول السليمة من حب الخير للناس أجمعين ، وإذًا فليس في ثقافة الإسلام ولا تعاليمه ما يدعو إلى العنف والكراهية.

إننا بحاجة إلى خلق السماحة وإعلاء قيمتها ، وضرورة التخلق بها ، لنطهّر بها أنفسنا من الغلّ والشحناء والمنازعة والبغضاء ، ونرسم في مجتمعاتنا شعائر المحبّة والإخاء ، وما أجمل أن تزكو قيمة السماحة في حاضرنا.